ثانياً: إضاءات تربوية

١- أَخلِص، تُخلَص:

(الإخلاصُ في طلبِ العلمِ شرطٌ تتابعيٌّ، لا ابتدائيٌّ، ومعنَى ذلك أنَّ طالبَ العلمِ يحرِصُ على متابعةِ الإخلاصِ في نفسِه، ولا يمتنعُ عن الطلبِ بدعوَى أنَّه لم يتحققْ لدَيْه الإخلاصُ.

ومعنَى الإخلاصِ فسرَّه بعضُ أهلِ العلمِ، فقال ابنُ جماعةَ: هو حُسنُ النيةِ في طلبِ العلمِ، بأنْ يقصِدَ به وجهَ اللهِ تعالى، والعملَ به، وإحياءَ الشريعةِ، وتنويرَ قلبه، وتحلية باطنه، والقربَ مِن اللهِ تعالى يومَ القيامةِ، والتعرضَ لما أعَدَّ لأهلِه مِن رضوانه، وعظيم فضلِه.
قال سفيانُ الثوريُّ: ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليَّ من نيَّتِي)[1].

قال ابن حِجةَ - بكسرِ الحاءِ - الحمويُّ، ردًّا على زوجتِه:

(وقائلة: أنفقتَ في الكُتْبِ ما حوَتْ يَداكَ مِن الأموالِ، قلتُ: دَعِيني
لعلِّي أرَى فيها كتاباً يَدلُّني لأخذِ كتابي آمناً بيَمِيني)[2]

قال هشامٌ الدَّسْتَوائيُّ: (واللهِ ما أستطيعُ أنْ أقولَ: إنِّي ذهبتُ يوماً قطُّ أطلبُ الحديثَ أُريدُ به وجهَ اللهِ عزَّ وجلَّ).

علَّق عليه الذهبيُّ بقولِه: (واللهِ ولا أنا، فقد كان السَّلفُ يطلبون

---

(١) (التأصيل في طلب العلم، لبازمول).

(٢) (الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد، ليوسف بن الحسن) (ص٤٥).

العلمَ للهِ، فنَبُلوا، وصاروا أئمةً يُقتدَى بهم، وطلَبه قومٌ منـــهم أولاً، لا للهِ، وحصَّلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسَهم فجرَّهم العلمُ إلى الإخلاصِ في أثناءِ الطريقِ، كما قال مجاهدٌ وغيرُه: طلَبْنا هذا العلمَ، وما لنا فيه كـــبيرُ نيةٍ، ثم رزَق اللهُ النيةَ بعدُ. وبعضُهم يقولُ: طلَبْنا هذا العلمَ لغيرِ اللهِ، فأبَى العلمُ أن يكونَ إلا للهِ. فهذا أيضاً حسنٌ، ثم نشروه بنيةٍ صـــالحةٍ. وقـــومٌ طلَبوه بنيَّةٍ فاسدةٍ لأجلِ الدنيا، ولِيُثْنَى عليهم، فلهم ما نَوَوْا)[١].

وقال الشافعيُّ: (وددتُ أنَّ الناسَ تعلَّموا هذا العلمَ - يعني كتبَه - على أن لا يُنسَبَ إليَّ منه شيءٌ) [٢].

(وقال حَرْملةُ: سمِعْتُ الشافعيَّ يقولُ: وددتُ أنَّ كلَّ علمٍ يعلمُـــه الناسُ، أُؤْجرُ عليه، ولا يحمَدوني.

وقال: ما ناظرتُ أحداً قطُّ إلا على النصيحةِ) [٣].

جاء في ترجمةِ ابنِ جُرَيْجٍ أنَّ الوليدَ بنَ مُســـلمٍ قـــال: (ســـألتُ الأوزاعيَّ وسعيدَ بنَ عبدِالعزيزِ وابنَ جُريجٍ: لَمنْ طلَبْتُم العلمَ؟ كلُّهم يقولُ: لنَفْسي. غيرَ ابنِ جريجٍ فإنَّه قال: طلبتُه للناسِ).

قال الذهبيُّ تعليقاً على هذا الخبرِ: (قلتُ: ما أحســـنَ الصـــدقَ! واليومَ تسألُ الفقيهَ الغبيَّ: لَمنْ طلبتَ العلمَ؟ فيبادِرُ ويقـــولُ: طلبتُـــه للهِ. ويكذِبُ، إنَّما طلَبه للدُّنيا، ويا قِلَّةَ ما عَرَفَ منه) [١].

---

(١) (سير أعلام النبلاء، للذهبي) (١٥٢/٧).

(٢) (المصدر السابق) (١٨/١٩).

(٣) (حلية الأولياء، لأبي نعيم) (١١٨/٩).

وحكى الذهبيُّ عن أبي الحسنِ القطَّانِ قولَه: (أُصِبْتُ ببصري، وأظنُّ أنِّي عُوقِبتُ بكثرةِ كلامِي أيامَ الرِّحلةِ).

ثمَّ قال الذهبيُّ معلقاً: (صدَق واللهِ، فقد كانوا معَ حسنِ القصدِ، وصحةِ النيةِ غالباً يخافون مِن الكلامِ، وإظهارِ المعرفةِ، واليومَ يُكثِرون الكلامَ، مع نقصِ العلمِ، وسوءِ القصدِ، ثمَّ إنَّ اللهَ يفضحُهم، ويلوحُ جهلُهم، وهواهم، واضطرابُهم فيما علِموه، فنسألُ اللهَ التوفيقَ والإخلاصَ)(٢).

هذا في زمانِه، فكيفَ في زمانِنا!

٢- التزكية أولاً:

قال أبو العباسِ بنُ قدامةَ: (فأمَّا علمُ المعاملةِ، وهو علمُ أحوالِ القلبِ، كالخوفِ، والرجاءِ، والرِّضا، والصدقِ، والإخلاصِ، وغيرِ ذلك، فهذا العلمُ ارتفَع به كبارُ العلماءِ، وبتحقيقِه اشتهرتْ أذكارُهم كسفيانَ، وأبي حنيفةَ، ومالكٍ، والشافعيِّ، وأحمدَ، وإنما انحطتْ رتبةُ المسمَّيْنَ بالفقهاءِ والعلماءِ عن تلك المقاماتِ؛ لتشاغُلِهم بصورِ العلمِ، مِن غيرِ أخذٍ على النفسِ أن تبلُغَ إلى حقائقِه، وتعملَ بخفاياه)(٣).

---

(١) (سير أعلام النبلاء، للذهبي) (٦/٣٢٨).

(٢) (المصدر السابق) (١٥/٤٦٤،٤٦٥).

(٣) (مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة) (ص٢٧).

٣- صدق التوجه إلى الله:

قال ابنُ عبدِالهادِي: (قال ابنُ تيمية: ربَّما طالعتُ على الآيةِ الواحدةِ نحوَ مائةِ تفسير، ثمَّ أسألُ اللهَ الفهمَ، وأقولُ: يا معلِّمَ آدمَ وإبراهيمَ، علِّمْني. وكنتُ أذهبُ إلى المساجدِ المهجورةِ ونحوِها، وأُمرِّغُ وجْهِي في الترابِ، وأسألُ الله تعالى وأقولُ: يا معلِّمَ إبراهيمَ فهِّمْني. ويذكرُ قصة معاذِ بنِ جبلٍ، وقولَه لمالكِ ابنِ يخامرَ لَمَّا بكَى عندَ موتِه، وقال: إنِّي لا أبكي على دُنيا كنتُ أُصيبُها منك، ولكنْ أبْكِي على العلمِ والإيمانِ اللذَيْن كنتُ أتعلَّمُهما منك. فقال: إنَّ العلمَ والإيمانَ مكانَهما، مَن ابتغاهما وجدَهما، فاطْلبِ العلمَ عندَ أربعةٍ، فإن أعياكَ العلمُ عندَ هؤلاء، فليس هو في الأرضِ فاطلُبْه مِن معلِّمِ إبراهيمَ)[(١)].

٤- العمل بالعلم:

(قال الشافعيُّ: ليسَ العلمُ ما حُفِظ، العلمُ ما نفَع. ومِن ذلك دوامُ السكينةِ، والوقارِ، والخشوعِ، والتواضعِ لله والخضوعِ.

ومما كتَب مالكٌ إلى الرَّشيدِ: إذا عُلِّمتَ علماً، فلْيُرَ عليك عِلمُه، وسكينتُه، وسمتُه، ووقارُه، وحِلمُه؛ لقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ)) [(٢)].

---

(١) (العقود الدرية، لابن عبد الهادي) (ص٢٥،٢٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣). وقال الزيلعي في (تخريج الكشاف) (٣/٧): له طريق سالمة من الضعف والاضطراب وطريق آخر بإسناد جيد. وقال ابن حجر في (فتح الباري) (١/١٩٢): إسناده مضطرب وله شواهد يتقوى بها.

وقال عمرُ رضِي اللهُ عنه: تعلَّموا العلمَ، وتعلَّموا لـــه الســـكينةَ والوقارَ.

وعن السَّلفِ: حقٌّ على العالِمِ أنْ يتواضَعَ للهِ، في سرِّه، وعلانيتِه، ويحترسَ مِن نفسِه، ويقفَ على ما أشْكلَ عليه) [(١)].

قال أبو الفرجِ ابنُ الجوزيِّ:

(مَن عرَف الشرعَ كما يَنْبغي، وعلِم حالةَ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأحوالَ الصحابةِ، وأكابرَ العلماءِ؛ علِم أنَّ أكثرَ الناسِ على غـــيرِ الجادةِ، وإنَّما يَمْشون معَ العادةِ، يتزاورون فيغتابُ بعضُهم بعضاً، ويطلبُ كلٌّ واحدٍ منهم عورةَ أخيه، ويحسُدُه إنْ كانتْ نعمةٌ، ويَشْمتُ بـــه إنْ كانتْ مصيبةٌ، ويتكبَّرُ عليه إن نصَح له، ويخادعُه لتحصيلِ شـــيءٍ مِـــن الدُّنيا، ويأخذُ عليه العثراتِ إنْ أمكَن، هذا كلُّه يجري بـــينَ المنْـــتَمِين إلى الزُّهدِ لا الرَّعاعِ.

فالأوْلَى بمَن عرَف اللهَ سبحانَه، وعرَف الشرعَ، وسِيَرَ السَّـــلفِ الصالحين، الانقطاعُ عن الكلِّ) [(٢)].

وعن أيُّوبَ السَّخْتِيانيِّ قال: (قال لي أبو قِلابةَ: إذا أحدَثَ اللهُ لك عِلماً، فأحدِثْ له عبادةً، ولا يكُنْ همُّك أنْ تحدِّثَ به.

وقال الشَّعبيُّ: كنَّا نستعينُ على حفظِ الحديثِ، بالعملِ به)[(١)].

---

(١) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة) (ص١٥ – ١٦).

(٢) (صيد الخاطر، لابن الجوزي) (ص ٢٨٩).

وقال سفيانُ الثوريُّ: (العلمُ يَهتِفُ بالعملِ، فإنْ أجابَه وإلا ارْتَحَلَ)[٢].

وقال الخطيبُ البغداديُّ: (إنِّي موصيك يا طالبَ العلمِ بإخلاصِ النيةِ في طلبه، وإجهادِ النفسِ على العملِ بموجبه، فإنَّ العلمَ شجرةٌ، والعملَ ثمرةٌ، وليس يُعَدُّ عالماً مَن لم يكنْ بعلمِه عاملاً، وقِيلَ: العلمُ والدٌ، والعملُ مولودٌ، والعلمُ مع العملِ، والروايةُ مع الدرايةِ، فلا تأنَسْ بالعملِ، ما دُمتَ مستوحشاً مِن العلمِ، ولا تأنسْ بالعلمِ، ما كنتَ مقصِّراً في العملِ، ولكن اجْمَعْ بينَهما، وإنْ قلَّ نصيبُك منهما...)[٣].

وقال أيضاً: (ينبغي لطالبِ الحديثِ أن يتميزَ في عامَّةِ أموره عن طرائقِ العوامِّ، باستعمالِ آثارِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم ما أمكَنه، وتوظيفِ السُّنةِ على نفسه؛ فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١])[٤].

❖ من علامات العلم النافع:

قال الشيخُ بكر أبو زيدٍ: (تساءَلْ مع نفسِك عن حظِّك مِن علاماتِ العلمِ النافعِ، وهي:

- العملُ به.

---

(١) (جامع بيان العلم، لابن عبد البر) (١/٧٠٩).

(٢) (المصدر السابق) (١/٧٠٧).

(٣) (اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي) (ص١٤).

(٤) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي) (١/٢١٥).

- كراهيةُ التَّزكيةِ والمدحِ والتكبرِ علَى الخلقِ.
- تكاثرُ تواضُعِك كلَّما ازددتَ علماً.
- الهربُ مِن حبِّ الترؤسِ والشهرةِ والدُّنيا.
- هجرُ دعوَى العلمِ.
- إساءةُ الظنِّ بالنفسِ، وإحسانُه بالناسِ تنزهاً عن الوقوعِ بهم.

وقد كان عبدُالله بنُ المباركِ إذا ذكَر أخلاقَ مَن سلَف يُنشِدُ:

لا تعرضَنَّ بذِكْرِنا مع ذِكْــرِهم ليسَ الصَّحيحُ إذا مشَى كالمُقْعَدِ[١]

٥- الأدب قبل الطلب:

قال عبدُالله بنُ المبارَكِ: (كانوا يطلبون الأدبَ ثمَّ العلمَ).

وقال أيضاً: (كادَ الأدبُ يكونُ ثُلُثَي الدِّينِ)[٢].

قال محمدُ بنُ سيرينَ: (كانوا يتعلَّمون الهَــدْيَ كمــا يتعلمــون العلمَ)[٣].

وعن إبراهيمَ بنِ حبيبِ بنِ الشَّهيدِ، قال: قال لي أبي: (يا بــنيَّ، إيتِ الفقهاءَ والعلماءَ، وتعلَّمْ منهم، وخذْ مِن أدبِهم وأخلاقِهم وهَدْيِهم، فإنَّ ذاك أحبُّ إليَّ لك مِن كثيرٍ مِن الحديثِ)[٤].

---

(١) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد) (ص٥١).

(٢) (صفة الصفوة، لابن الجوزي) (٤/١٤٥).

(٣) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي) (١/١٢١).

(٤) (المصدر السابق).

وقال أبو زَكرِيَّا يحيَى بنُ محمدٍ العنبريُّ: (علمٌ بلا أدبٍ، كنارٍ بلا حطبٍ، وأدبٌ بلا علمٍ، كجسمٍ بلا روحٍ)[١].

قال عيسَى بنُ حمادٍ زغبةُ: (سمِعتُ الليثَ بنَ سعدٍ يقولُ – وقد أشرفَ على أصحابِ الحديثِ فرأى منهم شيئاً – : ما هذا؟ أنتُم إلى يسيرٍ مِن الأدبِ أحوجُ مِنْكم إلى كثيرٍ مِن العلمِ)[٢].

❖ من خلق الطالب وسمته:

قال الخطيبُ البغداديُّ: (يجبُ على طالبِ الحديثِ أن يتجنَّبَ اللعبَ والعبثَ والتبذلَ في المجالسِ بالسخفِ، والضحكِ، والقهقهةِ، وكثرةِ التنادرِ، وإدمانِ المزاحِ والإكثارِ منه، فإنَّما يُستجازُ مِن المزاحِ يسيرُه ونادرُه وطريفُه الذي لا يخرجُ عن حدِّ الأدبِ وطريقةِ العلمِ، فأمَّا متصلُه وفاحشُه وسخيفُه وما أوْغَر منه الصدورَ وجلَب الشرَّ؛ فإنَّه مذمومٌ، وكثرةُ المزاحِ والضحكِ يضعُ مِن القَدْرِ، ويزيلُ المروءةَ)[٣].

وقال الشيخُ بكر أبو زيدٍ: (تحلَّ بآدابِ النفسِ، مِن العفافِ، والحِلمِ، والصبرِ، والتواضعِ للحقِّ، وسكونِ الطائرِ، مِن الوقارِ والرزانةِ، وخفضِ الجناحِ، متحملاً ذلَّ التعلمِ لعزَّةِ العلمِ، ذليلاً للحقِّ.

وعليه، فاحذرْ نواقضَ هذه الآدابِ، فإنَّها معَ الإثمِ تُقيمُ على نفسِك شاهداً على أنَّ في العقلِ علةً، وعلى حرمانٍ مِن العلمِ والعملِ به،

---

(١) (المصدر السابق) (١/١٢٢).

(٢) (شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي) (ص١٢٢).

(٣) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي) (١/٢٣٢).

فإيَّاك والخيلاءَ، فإنَّه نفاقٌ وكبرياءُ، وقد بلَغ مِن شدةِ التَّوقِّي مِنه عندَ السَّلفِ مبلغاً) (١).

❖ من آداب طالب العلم:

(أمَّا المتعلِّمُ: فآدابُه ووظائفُه كثيرةٌ، ولكن ينظمُ تفاريقَها عشـــرُ جملٍ [ومنها]:

- تقديمُ طهارةِ النفسِ عن رذائلِ الأخلاقِ، ومذمومِ الأوصافِ.
- أنْ يقلِّلَ علائقَه مِن الاشتغالِ بالدُّنيا.
- أنْ لا يتكبرَ على العلمِ، ولا يتأمرَ علَى المعلِّمِ.
- أنْ يحترزَ في مبدأِ الأمرِ عن الإصغاءِ إلى اختلافِ الناسِ.
- أنْ لا يدعَ الطالبُ فنًّا مِن العلومِ المحمودةِ، إلا وينظرُ فيه نظراً يطَّلِعُ به على مقصدِه.
- أنْ لا يأخذَ في فنٍّ دفعةً، بل يُراعي الترتيبَ، ويبتدئُ بالأهمِّ.
- لا يخوضُ في فنٍّ، حتى يستوفيَ الذي قبلَه.
- أنْ يكونَ قصدُ المتعلِّمِ في الحـــالِ تخليـــةُ باطنِـــه وتجميلُـــه بالفضيلةِ)(٢).

❀❀❀

(١) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد) (ص١٠).

(٢) (أبجد العلوم، لصديق حسن خان، بتصرف) (١/١٢٤- ١٢٧).